# الأدب الأندلسي من البدايات التأسيسية إلى مرحلة الازدهار

**Andalusian literature from the foundational beginnings to the flourishing stage.**

**Littérature andalouse des débuts fondateurs à la période florissante.**

**خضراوي زينب[1] ***

**تاريخ الإرسال:** 2021/06/13 **تاريخ القبول:** 2021/09/17 **تاريخ النشر:** 2022/06/01

**ملخص:**

لا يروم هذا المقال التتبع التاريخي لنشأة الدولة الأندلسية، ولا تفصيل القول في الإمارات الحاكمة لها؛ بقدر ما ينصب اهتمامه على تتبع الحركة الثقافية في بلاد الاندلس بصفة عامة والأدبية منها بصفة خاصة، وذلك من خلال تقصي البحث عن البدايات التأسيسية لهذا الأدب وتتبع مراحل نشأته ونضجه وتطوره، ابتداء بعهد الولاة الذي يمثل مرحلة تأسيسية له، ومرورا بعهد الإمارة بوصفه مرحلة نشأة، وانتهاء بعهد الطوائف الذي يمثل مرحلة ازدهار وتطور .

**الكلمات المفتاحية:** الأدب؛ الأندلس؛ البدايات التأسيسية؛ مرحلة الازدهار؛ الحركة الثقافية.

**Abstract :**

This article does not intend to trace the history of the emergence of the Andalusian state, nor to elaborate on the ruling emirates; As much as his interest is focused on tracing the cultural movement in Andalusia in general and the literary movement in particular, by investigating the search for the founding beginnings of this literature and tracing the stages of its inception, maturity and development, starting with the era of the rulers, which represents its founding stage, and passing through the era of the emirate as a stage of emergence, And the end of the era of sects, which represents a stage of prosperity and development.

**Keywords**: literature; Andalus; Foundational beginnings; boom stage; cultural movement.

**Résumé :**

Cet article n'entend pas retracer l'histoire de l'émergence de l'État andaloux, ni élaborer sur les émirats régnants ; Autant son intérêt qui se concentre sur la traçabilité du mouvement culturel en Andalousie, en général et du mouvement littéraire en particulier, en enquêtant sur la recherche des débuts fondateurs de cette littérature et en retraçant les étapes de sa création, de sa maturité et de son développement, à commencer par l'ère des dirigeants, qui représente son étape de fondation, et à travers l'ère de l'émirat comme étape d'émergence Et la fin de l'ère des sectes, qui représente une étape de prospérité et de développement.

**Mots clés** : littérature; Andalous; Débuts fondateurs; stade du boom; mouvement culturel.

*المؤلف المراسل

[1] Khadraoui Zineb, Department of Arts and Arabic Language, Faculty of Arts and Languages, University of Mentouri Constantine1, Algeria, zinebkhadraoui17@gmail.com

## مقدمة

لا يمكننا إنكار أن نشأة الثقافات والعلوم المختلفة " في المجتمعات الإسلامية كانت متقاربة أو متشابهة حيث بدأت بذرة صغيرة، ثم ما لبثت بفضل الرعاية والعناية والاهتمام أن نمت وازدهرت وأثمرت، وهذا ما حدث في المشرق، وهو قريبا مما حدث للعلم والثقافة بالمغرب والأندلس" (دويدار، 1994، صفحة 381).

فقد جاء الإسلام "فمهد الأرض ، ووضع بذور العلوم الدينية والعربية، ومضى زمن أخذت تتطور فيه هذه العلوم، ثم كان الاتصال بالأمم الأخرى ذات الحضارة والعلم والثقافة، فاقتبس المسلمون من علومها وترجموا بعض كتبها إلى العربية، وصححوا فيها وأضافوا إليها، حتى أخرجوا بعد ذلك نتاجا عظيما من العلم والثقافة" (دويدار، 1994، صفحة 381)، وفيما يلي تتبع للحركة الثقافية في بلاد الأندلس بصفة عامة والأدبية منها بصفة خاصة، وفقا للتسلسل التاريخي الذي مرت به بلاد الأندلس.

## 1- فترة الولاة/ البدايات التأسيسة

وعندما فتح المسلمون بلاد الأندلس، "انشغلوا في بدايات الفتح بالحملات العسكرية التي سارت إلى الشمال لإخضاع المتمردين الإسبان أو العبور وراء جبال البرتات لوضع حد لهجوم الفرنجة، أو فتح أرض جديدة وراء هذه الجبال" (السامرائي، 2000، صفحة 313)، فالسمة المميزة للعصر الأول من تاريخ المسلمين في الأندلس هي " أنه لم يكن عصر علم، وإنما كان عصر فتح وغزو، وصراع سياسي بين العصبيات القبلية من أجل الحكم" (عتيق، بلا تاريخ، صفحة 149).

ومع ذلك فقد عرفت الأندلس في فترة الولاة شيئا من الثقافة، "كانت اللبنة الأولى لبناء صرح حضارة عربية فيها، فقد دخل الأندلس في هذه الفترة نفر من الصحابة والتابعين، الذين كانوا على حظ كبير من المعرفة الدينية، التي وظفوها في تسيير أمور المسلمين من خلال تقديم الفتاوي المتعلقة بأمور الدين، كتقسيم الغنائم، وتحديد الضرائب وتخطيط المساجد، وتفقيه الناس، وأغلب الظن أن هؤلاء قد أسسوا أوائل المدارس الأندلسية، حين أنشئت أول المدارس في إشبيلية وغيرها" (هيكل، 2013، صفحة 60)، وبهذا لم يهتم أصحاب هذا العصر بالعلوم إلا ما تعلق بعلوم الشريعة وعلم اللغة (ابن الصاعد، 1913، صفحة 62).

فقد كان القرآن في بلاد الأندلس -كما في غيره من البلدان الإسلامية-المصدر الوحيد للتشريع وتنظيم حياة المسلمين، "ولم تمس الحاجة إلى اللجوء والاستعانة بسنن الرسول -صلى الله عليه وسلم- إلا بعد أن احتك أهل الإسلام بنظم الشعوب المفتوحة في المشرق والمغرب، ووجدوا أنفسهم -نتيجة لهذا الاحتكاك- أمام مشاكل تشريعية وقانونية شديدة

التعقيد" (بالنثيا، بلا تاريخ، صفحة 02)، أدت بهم إلى الاستعانة بالثقافة المشرقية لتدبير أمور الحياة وفق أحكام الدين الإسلامي والسنة النبوية (السامرائي، 2000، صفحة 315).

ولا يمكننا غض النظر عن تلك البوادر الأولى للأدب العربي في الأندلس والتي كان لها دور كبير في تقديم نظرة شاملة عن هذا العصر الذي تميز بتمسك المسلمين الفاتحين بأخلاق الإسلام ومحاولة نشرها في هذه البلاد الجديدة وجذب أكبر عدد ممكن من أهلها لهذا الدين الجديد والثقافة العربية الجديدة، فتجد قليلا من الأشعار والنصوص النثرية والتي رغم قلتها عكست بعضا من حياة العرب في هذه الفترة من تاريخ بلاد الأندلس، فهناك أبيات من الشعر نسبت إلى فاتح الأندلس الأول طارق بن زياد يقول فيها (المقري، 1997، صفحة 265):

كبنا سفينًا بالمجاز مقيرًا عسى أن يكون الله منا قد اشترى

نفوسًا وأموالاً وأهلا بجنة إذا ما اشتهينا الشيء فيها تيسرا

و"نسبت إليه الخطبة المشهورة (أيها النّاس أين المفر ...)، فلو صحت نسبة هذين النصين إلى طارق بن زياد، لاعتبر أول أدب عربي ظهر في الأندلس خلال عصر الولاة" (السامرائي، 2000، صفحة 314).

إلى جانب طارق بن زياد، كان من الوافدين على الأندلس في هذه الفترة جماعة ممن يقرضون الشعر، منهم أبو الأجرب جعونه بن الصمة، والذي اشتهر بهجاء الصميل بن حاتم رئيس القيسية آنذاك، وعرف أيضا بمدحه بعدما تمكن منه وعفا عنه، وقد قيل إن هذا الشاعر كان بمرتبة جرير والفرزدق، ولو أنه أنصف لاستشهد بشعره (هيكل، 2013، الصفحات 61-62)، كذلك روي أن أبا نواس سأل عنه عباس بن ناصح الأندلسي، وطلب منه أن يسمعه شيئا من شعره، ومع كل هذا لم يصلنا من شعره إلا القليل النادر، ومن ذلك قوله (المغربي، 1955، صفحة 132):

ولقد أراني من هواي بمنزل عال ورأسي ذو غدائر أفرع

والعيش أغيد ساقط أفنانه والماء أطيبه لنا والمرتع

ومن شعراء هذه الفترة أيضا نجد الشاعر أبو الخطار حسام بن ضرار، ولقد كان من أشراف القحطانيين في الأندلس، وممن شهدوا فتوح المسلمين بإفريقيا وأبلوا فيها بلاء حسنا (هيكل، 2013، صفحة 62)، وكان " أمير الأندلس، وواليها بعد قتل أميرها عبد الملك بن قطن (...) فدانت الأندلس له وخمدت الفتنة به وفرق جموعها وأخرج عنها من كان سببها..." (المغربي، 1955، الصفحات 276-277) وهو كسابقه لم يعثر إلاّ على القليل من شعره، والذي منه ما قاله في معاتبة الحكام المروانيين لنصرتهم للقيسيين على حساب اليمنيين (المغربي، 1955، صفحة 277).

أفادت بنو مروان قيسًا دماءنا وفي الله أن لم يعدلوا حكم عدل

كأنكم لـم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا مـن كان ثم له الفـضل
وقيناكم حر القـــنا بنفوسنا وليس لكـم خيل سوانا ولا رجـل
فلما رأيتم واقد الحـرب قد خبا وطاب لكم فيها المشارب والأكـل
تثاقلتم عنا كأن لم نكن لكم صديقا وأنتم وأنتم ما علمنا ولا فعل
ولا تعجلوا إن دارت الحرب دورة وزلت عن المهواة بـــالقدم النعل

إذن " هذان شاعران تردد شعرهما في الأندلس خلال فترة الولاة، ومن المحقق أنهما لم يكونا وحدهما اللذين عرفا بقول الشعر في تلك الفترة، وإنما كان هنالك آخرون نسيت أسماؤهم، وضاعت أشعارهم مع الكثير مما نسي وضاع من تراث الأندلس وخاصة في هذه الحقبة المتقدمة المضطربة من تاريخها" (هيكل، 2013، صفحة 62).

من خلال -ما سبق- نتفق بشكل كبير مع عبد الله عنان حين رأى أن الأندلس لم تكن في بدايات الفتح مهيأة لنشوء الحياة الثقافية، ومرد هذا التأخر انشغالهم بالجانب الحربي على حساب الجانب الثقافي العلمي (عنان، 1997، صفحة 691)، لكن هذا لم يمنع وجود بعض" بعض الآثار الشعرية القليلة التي ترد على ألسنة بعض الولاة والزعماء" (عنان، 1997، صفحة 691).

## 2- عهد الإمارة/مرحلة النشأة

أما إذا ما انتقلنا إلى عهد الإمارة فنجد أن الأندلس قد "خطت أولى الخطوات نحو الثقافة الأندلسية الحقة، ولقد ساعدها في ذلك وفود كثير من الأمويين وأنصارهم إلى الأندلس، إلى جانب دعوة بعض العلماء المشارقة للاستفادة من علمهم وأدبهم ومن بينهم على سبيل المثال استدعاء أبي القالي صاحب كتاب « الأمالي» من بغداد إلى الأندلس من قبل الخليفة عبد الرحمن الناصر حيث لقي عنده وافر الحظوة والكرم، واختص بابنه الحكم المستنصر، وأورث أهل الأندلس علمه" (عتيق، بلا تاريخ، صفحة 150).

ومن بين الوافدين أيضا على الأندلس أبو العلاء صاعد بن الحسن البغدادي، عالم اللغة والأدب والأخبار، والذي جاء إلى الأندلس في ولاية المنصور بن أبي عامر ونال عنده مكانة رفيعة، وجمع له كتابا سمّاه (الفصوص) سار فيه على نهج أبي علي القالي في كتابه الأمالي، وكان نبوغه ومهارته يتجليان في حسن بديهته الأدبية ورواياته الشعرية (عتيق، بلا تاريخ، صفحة 150).

وانتشر علم أبي علي القالي وأبي العلاء صاعد البغدادي بين أهل الأندلس، فكانا من أوائل واضعي أسس الثقافة المشرقية بالأندلس في اللغة والأدب (عتيق، بلا تاريخ، صفحة 150).

كما نجد من بين العوامل المساعدة على نشأة ثقافة أندلسية خالصة، هو رحيل بعض الأندلسيين إلى المشرق، ممن عملوا على التبحر في علوم المشارقة، والأخذ منها، ثم العودة إلى الأندلس لنشر تلك العلوم بين أهله (عتيق، بلا تاريخ، صفحة 151). ومنهم الغازي بن قيس الذي تتلمذ على يد الإمام مالك ثم عاد إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل، فأكرمه وعرض عليه القضاء فرفض واختار التفرغ لنشر علمه وأدبه، وغيره كثير ممن مثلوا الجيل الأول للثقافة الأندلسية، مثل عبد الملك بن حبيب ويحي الليثي وزياد ابن عبد الرحمن، وغيرهم (دويدار، 1994، صفحة 387).

واعتبرت تلك المرحلة من عمر الإمارة أولى مراحل الأدب الأندلسي، ففيها نشأ أول جيل من أدباء الأندلس وعلمائها، ولم يبق الأدب حكرا على الوافدين من المشرق كما كان الحال من قبل، وإنما ظهرت النماذج الأدبية الأولى، التي تعد تراث الأندلس بحق، وفيها تشكلت الملامح الأولى لأدب هذا الإقليم الخاص (هيكل، 2013، صفحة 81).

وكان الشعر الأندلسي في هذه المرحلة يسير في اتجاه المدرسة المحافظة المشرقية ولكن مع تميزه بسمات خاصة تشكل ملامحه الأولى منذ نشأته، " وتتمثل مظاهر هذا الاتجاه المحافظ في أن الشعر الأندلسي كان يهتم أكثر بالموضوعات التقليدية، من فخر ومدح وحماسة، وما إلى ذلك ويسير على نهج الأقدمين في بناء القصيدة، وفي تجميع صورها غالبا من عالم البادية، وتأليف أسلوبها في الأعم من لغة تستوحي الذاكرة والتراث، أكثر مما تستوحي العصر والواقع" (هيكل، 2013، صفحة 81).

ولم تكن هذه المحافظة من باب التقليد، إنما كان لها أسباب فرضها الواقع الذي يعيشه الأندلسيين وظروفهم التي تستدعي إلى حد كبير هذه الموضوعات التقليدية (هيكل، 2013، صفحة 84)،" فالفخر والحماسة من لوازم الصراع والغلبة، وقد عرفت الأندلس كثيرا من ذلك في تلك الفترة وفي غيرها، والمدح أيضا من لوازم البيئة العربية القديمة، وقد كانت البيئة الأندلسية تنطبع إلى –حد كبير- بالطابع العربي" (هيكل، 2013، صفحة 84).

وشعراء هذا العهد كثيرون، و" أكثرهم أندلسيون مولدا ومنشأ وثقافة، وأقلهم أندلسيون حياة وتأثرا ونتاجا" (هيكل، 2013، صفحة 91)، ونذكر من بينهم عبد الرحمن الداخل وأبو المخشى وحسانه التميمية وعباس بن ناصح (الدقاق، 1975، صفحة 48).

وازدهرت الثقافة الأندلسية في عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط (206هـ-238هـ) ازدهارا عظيما، حيث شهد عصره كثيرا من الهدوء والاستقرار واليسر والرخاء (المقري، 1997، صفحة 347)، فـ" سميت أيامه بـ(العروس)، إذ عرف هذا

الأمير بحبه للثقافة والأدب، فهو شاعر ذا همة عالية، مغرما بالفنون والعلوم، حريصا على اقتناء الكتب، وجلبها من الأمصار" (المراكشي، 2013، صفحة 106).

وكنتيجة حتمية لهذا الازدهار الثقافي ظهر كثير من العلماء في شتى فروع الثقافة العربية والإسلامية، واحتشد في بلاط عبد الرحمن جمهرة من أبرع العلماء والأدباء والشعراء، مثل العلامة الرياضي والفلكي عباس بن فرناس، ويحي الغزال، وشاعره الخاص عبد الله بن الشمر بن نمير، وعباس بن ناصح الجزيري شاعر أبيه الحكم، وعبيد الله بن قرلمان بن بدر، مولى الداخل وغيرهم (عنان، 1997، صفحة 280).

ثم تلاه عهد الخلافة الذي نهضت الحركة العلمية والثقافية في الأندلس نهضة شاملة، وتطورت تطورا عظيما، كان من مظاهره وضوح الشخصية العلمية والثقافية للأندلس، واستقلالها إلى حد كبير عن المشرق (دويدار، 1994، صفحة 388).

ولا شك أن ظروف التوحد والاستقرار، والأمن والرخاء، والتحضر والرقي الذي تحقق في هذه الفترة على يد عبد الرحمن الناصر، وابنه الحكم المستنصر كان له دخل كبير في ذلك، هذا بالإضافة إلى تشجيعهم للعلماء والأدباء، والعمل على جلب عدد كبير من الكتب والمؤلفات إلى مكتبات قصورهم (دويدار، 1994، صفحة 389)، فكان في خزانة العلوم والكتب بدار بني مروان " عدد الفهارس التي فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسا، وفي كل فهرسة عشرون ورقة، ليس فيها إلا ذكر أسماء الدواوين لا غير، وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جلبت إليها بضائعه في كل قطر" (المقري، 1997، الصفحات 385-386).

وبرز في هذا العصر أكبر الشعراء وأعظم العلماء، فكان من أعلام هذه الفترة " إلى جانب عميدهم ابن عبد ربه، صاحب العقد الفريد، محمد بن عمر بن لُبابة، وهو من أهل قرطبة... كان حافظا لأخبار الأندلس، وله حظ من النحو والشعر..." (عنان، 1997، صفحة 696)، إلى جانب الشاعر الكبير ابن هانئ الأندلسي والوزير جعفر بن عثمان المصحفي، نجد كذلك عدد من أكابر الكتاب والبلغاء، في مقدمتهم كاتب الناصر الأثير عبد الله بن محمد الزجالي، دون أن ننسى الإشارة إلى أن في هذا العهد أيضا ظهر ولمع عدد من المؤرخين الذين وضعوا أسس الرواية الأندلسية، أولهم أحمد بن محمد بن موسى الرازي ومن أشهر مؤلفاته (أخبار ملوك الأندلس وخدمتهم وغزواتهم ونكباتهم) وكتاب (الاستيعاب في أنساب أهل الأندلس)، وعاصره المؤرخ الكبير ابن القوطية وكان راويا متمكنا حافظا لأخبار الأندلس وسير أمرائها وأخبار علمائها وفقهائها وشعرائها، وقد ألف أشهر كتبه في التاريخ المسمى بـ"تاريخ افتتاح الأندلس" (عنان، 1997، صفحة 696).

ولقد استمرت هذه النهضة الثقافية، في عهد الحكم المستنصر (350هـ-366هـ)، بل ازدادت قوة وازدهارا، فكان الحكم الخليفة الأديب العالم، هو رائد هذه الحركة الفكرية والثقافية العظيمة (عنان، 1997، صفحة 701)، إذ يصفه المقري بقوله " إنه كان حسن السيرة، مكرما للقادمين عليه، جمع من الكتب ما لا يحدّ ولا يوصف كثرة ونفاسة، حتى قيل: إنها كانت أربعمائة ألف مجلد، وإنهم لما نقلوها أقاموا ستة أشهر في نقلها" (المقري، 1997، الصفحات 394-395)، ومكتبته الأموية تعد أعظم مكتبات العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تنافس مكتبة قرطبة ومكتبة بغداد، وقد ضمت النسخة الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني (السرجاني، 2011، صفحة 228).

ومن مآثره في تشجيعه للعلم والعلماء " اتخاذه المؤدبين يعلمون أولاد الضعفاء والمساكين القرآن حوالي المسجد الجامع، وبكل ربض من أرباض قرطبة، وأجرى عليهم المرتبات، وعهد إليهم في الاجتهاد والنصح، ابتغاء وجه الله العظيم..." (المراكشي، 2013، صفحة 226).

وظهر في هذه الفترة جمهرة من الشعراء البارزين، وكان في مقدمتهم طاهر بن محمد البغدادي الوافد من المشرق إلى الأندلس وكان يعرف بالمهند، وكذلك محمد بن مطرف بن شخيص، وكان من أهل الأدب البارع، ومن أعيان الشعراء المجيدين، ونجد أيضا يحي بن هذيل وهو من أهل العلم والأدب والشعر الجيد، وإلى جانب هؤلاء نجد أشهر شعراء هذا العصر وهو يوسف بن هارون الرمادي القرطبي والذي عرف بشعره الهجائي، ولكنه مدح الحكم المستنصر في أكثر من قصيدة (عنان، 1997، الصفحات 701-703).

واستمر " سير الثقافة الأندلسية في عهد الحجابة بقوة الدفع التي كانت سائدة في عصر الخلافة" (هيكل، 2013، صفحة 273)، فقد أبدى الحاجب المنصور اهتماما كبيرا بأهل العلم والثقافة والأدب، فبرغم " ما كان عليه من الهيبة والرهبة، فقد كان له حِلم واحتمال، مع محبة للعلم وإيثار للأدب وإكرام لمن ينتسب إليهما" (ابن الأبار، 1985، صفحة 273)، وكان يعشق مجالس العلماء والأدباء، لدرجة أنه كان خلال الغزو يصطحب معه مجموعة من الكتّاب والشعراء، يدونون غزواته وبطولاته خلال السير، وهذا يعتبر أمر طبيعي لرجل نشأ في بيت علم وأدب، وسلك مسالك الفقهاء والقضاة، قبل أن يسلك مسلك السياسيين (نعنعي، 1983، صفحة 468).

بيد أن المنصور "رغم شغفه بالعلم والأدب لم يظهر تسامحه إزاء الفلسفة والفلاسفة أو بعبارة أخرى إزاء الأفكار الحرة" (عنان، 1997، صفحة 407)، فقد عمل على مقاومة تلك الدراسات الفلسفية، إرضاء للعامة وكسبا لتأييد الفقهاء، إذ قام بإحراق كتب الفلسفة والمنطق والفلك، التي كانت تزخر بها مكتبة الحكم المستنصر، وبهذا تقيدت الحرية الفكرية نتيجة تخوف الناس من الاتصال بالعلوم العقلية (هيكل، 2013، صفحة 270)، وكان من نتائج هذا الترهيب والتخويف أن "

سكن أكثر من كان قد تحرك للحكمة عند ذلك وخملت نفوسهم، وتستروا بما كان عندهم من تلك العلوم، ولم يزل أولوا النباهة من ذلك الوقت يكتمون ما يعرفونه منها ويظهرون ما تجوّز لهم فيه من الحساب والفرائض والطب وما أشبه ذلك إلى أن انقرضت دولة بني أمية في الأندلس" (ابن الصاعد، 1913، الصفحات 66-67).

ولم يكن الأدب بمعزل عن حياة الناس في تلك الفترة فلقد تأثر بظروف البلاد السياسية وأحوالها الاجتماعية وأوضاعها الثقافية (هيكل، 2013، صفحة 273)، ويذكر أن المنصور كان لديه مجلس في قصره يجتمع فيه العلماء والأدباء والشعراء، وكان يشاركهم أحيانا في مناقشاتهم، ويدلي فيها بآرائه ومواقفه، كما بلغ اهتمامه بالشعر أن أنشأ ديوانا خاصا سمي (ديوان الندماء) مهمته ترتيب الشعراء في طبقات، وبذل العطاء لهم على أقدارهم ومراتبهم في الشعر (دويدار، 1994، الصفحات 394-395).

وكان من أعظم شعراء الأندلس في عصر المنصور ابن دراج القسطلي، وكان كاتبا بليغا من كتّاب ديوان الإنشاء، وشاعرا لامعا في نفس الوقت (عنان، 1997، صفحة 704)، إلى جانب ابن دراج نبغ كل من الحاجب المصحفي والجزيري والأمير الطليق والرمادي (هيكل، 2013، صفحة 282).

وكان من الطبيعي أن تتأثر الحياة الثقافية والعلمية في قرطبة بأحداث عهد الفتنة، إذ " تعطلت المدارس وأغلقت، وانحلت حلقات الدرس، وقتل بعض العلماء، ومن بينهم ابن الفرضي صاحب كتاب (تاريخ علماء الأندلس) عام (403هـ)، وهاجر البعض من قرطبة إلى شرقي الأندلس كابن حزم باحثين عن الأمن والأمان" (السامرائي، 2000، صفحة 335).

وعلى الرغم من تلك الفتن والصراعات والنزاعات "لم تخمد أنفاس الحركة العلمية في الأندلس خلال هذه الفترة، فقد كانت هناك بقية من العلماء الأندلسيين الذين أدركوا الازدهار في فترة الخلافة، أو انتفعوا بقوة الدفع في فترة الحجابة، فحفظوا للأندلس كثيرا من علمها وتراثها" (السامرائي، 2000، صفحة 335)، ولقد برز عالمان جليلان من بين علماء الأندلس، وأديبان فذان قدما كثيرا للعلم والأدب في هذه الفترة وهما: أبو محمد بن حزم، وأبو مروان بن حيان (هيكل، 2013، صفحة 350).

أما الأدب فقد تأثر بأحداث الفتنة تأثرا واضحا، فـ" كان التأثر شرا على بعض الأنواع الأدبية وخيرا على بعضها الآخر، ومن مظاهر الشر انتشار أدب التلهي والنفاق والتفاهة، أو أدب الهروب بتعبير آخر، ومن مظاهر الخير ظهور أدب التأمل والتذكر والنقد، أو أدب المراجعة بتعبير أعم، وقد كان الشعر مجال النوع الأول، كما كان النثر مجال النوع الثاني" (هيكل، 2013، الصفحات 363-364).

وكان شعراء عهد الفتنة أقل بطبيعة الحال من شعراء العهود السابقة "فلولا قلة من الشعراء الموهوبين الذين تغلبت طبيعتهم الفنية على ظروف الفتنة القاسية، لما وجدنا لهذه الفترة شعرا ذا قيمة كبيرة، لأن أحداث الفتنة حصرت الشعر في دائرة ضيقة، وصرفت الشعراء عن الفن الجاد" (هيكل، 2013، صفحة 364)، ولقد كان " بعضهم ممن سبق العمر به في فترة الحجابة، أو امتد به الأجل فأدرك عصر الطوائف، وألمع شعراء عصر الفتنة هم: أبو عامر بن شهيد وأبو محمد بن حزم، وأبو مروان الطبني، وأبو عبد الله بن الحناط" (هيكل، 2013، صفحة 367).

## 3- عهد دول الطوائف/مرحلة الازدهار

وبانقسام الدولة الأموية، وتفرق شملها تقاسمت دول الطوائف هذا الميراث المعرفي الضخم الذي كان في حاضرة الخلافة الأموية (الكحلوت، 2010، صفحة 61)، ولقد كان ملوك الطوائف بالرغم من صراعاتهم ونزاعاتهم الدائمة حماة للعلوم والآداب (عنان، 1997، صفحة 423)، ونتج عن تنافسهم السياسي أن نهضت الحياة الثقافية والأدبية "نهضة بلغت بها أقصى درجات ازدهارها في تاريخ الأندلس الإسلامي، وقد كان هذا الازدهار نتيجة لعوامل كثيرة، أهمها أن عصري الخلافة والإمارة كانا بمثابة فترة إعداد طويلة تجمعت خلالها مواد وافرة غزيرة في كل فرع من فروع الدراسات واختمرت اختمارا طويلا، وثانيها أن علماء قرطبة غادروها أثناء الفتنة وانتشروا في شتى نواحي الأندلس، وكذلك تفرقت في كل ناحية مجموعات الكتب التي كانت مختزنة في مكتبات قرطبة، وثالثها تلك الحرية التي أباحها ملوك الطوائف في شتى نواحي الحياة الاجتماعية بما فيها الناحية الدينية" (بالنثيا، بلا تاريخ، صفحة 13).

ولقد ساعد أيضا على ازدهار دول الطوائف ثقافيا وأدبيا كون "معظم الملوك والرؤساء من أكابر الأدباء والشعراء والعلماء، وكانت قصورهم منتديات زاهرة، ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون" (عنان، 1997، صفحة 423) المختلفة، فلقد انتشرت هذه القصور التي تميزت بفخامتها وروعتها وبذخها في كامل البلاد الأندلسية، وعرفت كذلك بكثرة أمرائها ووزرائها وكتابها الأدباء منهم والشعراء (عنان، 1997، صفحة 423)، فبذلك غدت هذه القصور منتديات أدبية ومجامع حقة للعلوم والآداب والفنون (السامرائي، 2000، صفحة 335).

ونظرا لتعدد أمرائها وتفاوتهم في رعاية الحركة الثقافية والأدبية، سنحاول الإشارة إلى أهم الدول التي اهتمت بالآداب والعلوم، ففي المقدمة تأتي دولة بني عباد بإشبيلية، والتي كانت تعتبر أعظم ملوك الطوائف قوة وجاها وملكا، فأسرة بني عباد عرفت بنبوغها في ميدان الأدب خاصة الشعر، ومن أبرز شخصياتها اللامعة نجد المعتضد بن عباد وولده المعتمد (عنان، 1997، صفحة 424).

لقد جمع المعتضد بن عباد في شخصيته جوانب عدة ايجابية فإلى جانب ما عرف به من حنكة سياسة وبراعة عسكرية، نجده ذو ذوق أدبي وثراء ثقافي مكنه من أن يجمع في بلاطه كبار الأدباء العلماء والفقهاء، ومن أشهرهم الشاعر الأديب الوزير ابن زيدون، ووزيره وكاتبه البزلياني (السرجاني، 2011، صفحة 352).

أما ابنه المعتمد بن عباد فقد فاقت شهرته الأدبية شهرته السياسية (السرجاني، 2011، صفحة 354)، حيث كان -والقول لصاحب الحلة السيراء – صاحب باع واسع في الأدب " ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه" (ابن الأبار، 1985، صفحة 55).

لا غرو، والحال هذه، أن تكون حاضرة إشبيلية قد تمتعت بمكانة علمية واسعة النطاق، بقدر ما كانت تتمتع به من مكانة سياسية وعسكرية، "إذ كان بنو عباد أعظم ملوك الطوائف اعتناءً بالأدب قدر اعتنائهم بالسياسة والحكم، وكان بلاط إشبيلية مسرحا رائعا للشعراء والأدباء فاقت شهرته السياسية، وقد اجتمع في بلاط بني عباد فحول الشعراء، وقد اعتنوا بهم وقدموهم، واتخذوهم ندماء ووزراء" (ابن الأبار، 1985، صفحة 356)، ولعل أشهرهم أبي بكر بن عمّار، وأبي الوليد بن زيدون، وعبد الجليل بن وهبون، وأبي الحسن الحصري، وابن حمديس (عنان، 1997، صفحة 425).

أما إذا التفتنا إلى بني الأفطس فيتضح لنا أن ملوك بطليوس قد اهتموا بالحركة الثقافية والأدبية، حيث كان بلاطهم لاسيما في عهد حاكمهم المظفر وولده عمر المتوكل، ملاذا لطائفة من أعظم شعراء العصر (عنان، 1997، صفحة 428)، وفي مقدمتهم وزيرهم الشاعر والكاتب الكبير أبو محمد عبد المجيد بن عبدون والذي من مآثره تلك القصيدة التي رثى فيها بنو الأفطس لما أصابهم على أيدي المرابطين، كما ضم بلاط المظفر ابن الأفطس أيضا الشاعر وفقيه زمانه ابن عبد البر (بالنثيا، بلا تاريخ، صفحة 16)، ودون أن ننسى أن المظفر حاكم بطليوس نفسه كان كاتبا جليلا وأديبا قديرا فهو صاحب التأليف المسمى بالمظفري الذي يضم نحو خمسين مجلدا، صوّر فيها مدى اهتمام أهل الأندلس بالتأليف في الثقافة والآداب التي بلغت أوجها في عصره (ضيف، 1989، صفحة 67).

أما في طليطلة فكان حامل مشعل الثقافة بني ذي النون وخاصة في عهد أميرهم المأمون يحيى بن اسماعيل (ضيف، 1989، صفحة 68)، حيث ازدهر التأليف العلمي من خلال ظهور عدد من العلماء أبرزهم الزرقالي في علم الفلك، أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش في الرياضيات، وابن وافد في الطب، أما في الجانب الأدبي فنجد من المؤرخين صاعد الطليطلي والحجاري، ومن النحويين أبي الوليد الوقشي، ومن الشعراء نجد ابن أرفع رأسه (بالنثيا، بلا تاريخ، الصفحات 16-17).

أما إذ ما انتقلنا إلى بلاط المرية، نجد أن جمهرة من أقطاب الشعر والأدب اجتمعت في بلاط بني صمادح وفي مقدمتهم أبو عبد الله محمد بن عبادة، المعروف بابن القزاز، وأبو الفضل جعفر بن شرف، وابن الحداد الوادي آشي وغيرهم (عنان، 1997، صفحة 429)، حيث كان المعتصم " يعقد المجالس بقصره للمذاكرة، ويجلس يوما لكل جمعة للفقهاء والخواص، فيتناظرون بين يديه في كتب التفسير والحديث، ولزم حضرته فحول الشعراء" (ابن الأبار، 1985، صفحة 82)، دون أن ننسى ذكر العلماء الذين عاشوا في بلاطه مثل أبي عبيد البكري الأديب، الذي كان من الجغرافيين المسلمين (بالنثيا، بلا تاريخ، صفحة 15)، الذي قال فيه ابن الأبار أنه "من مفاخر الأندلس، وهو أحد الرؤساء والأعلام، وتواليفه قلائد في أجياد الأيام" (ابن الأبار، 1985، صفحة 185).

ونشير هنا، بأن ازدهار الحياة الثقافية والعلمية في الأندلس في عصر ملوك الطوائف، رافقه ذيوع المكتبات العامة والخاصة التي شملت أنفس وأجود أنواع الكتب، حيث اهتم أصحاب مملكة إشبيلية والمرية وبطليوس وطليطلة وقرطبة بهذه الظاهرة إذ كانوا يتنافسون في اقتناء الكتب النفيسة والنادرة، وهذا التنافس كان له بلا ريب تأثير كبير في تقدم الحركة الثقافية والأدبية في هذا العصر (عنان، 1997، الصفحات 436-437).

ومما أثرى الحياة الثقافية والأدبية في هذا العصر تلك المجالس الأدبية التي كانت سمة بارزة عند ملوك الطوائف، " إذ كثرت كثرة لم يسبق لها مثيل، فكان المعتضد بن عباد –حاكم إشبيلية- يعقد مجلسه يوم الاثنين من كل أسبوع، وكان يوم الجمعة مجتمع المعتصم بن صمادح صاحب المرية، وكذلك كان الأمر بالنسبة لبقية ملوك الطوائف الذين مارسوا هذا النشاط الاجتماعية المفيد" (بهجت، 1986، صفحة 42).

وكان كبار الأدباء يعقدون مجالسهم وسط الرياض والمنتزهات، وكان لولادة بنت المستكفي صالونها الأدبي الخاص في قرطبة، وعرفت هذه المجالس بكونها تستقطب الأدباء والشعراء لتنشيط المناظرات الأدبية والمطارحات الشعرية الارتجالية (الكحلوت، 2010، الصفحات 75-76).

إلى جانب هذا نجد أن الاهتمام بالأدب والشعر لم يقتصر على مكان دون غيره أو على طبقة دون أخرى، بل عرف أهل الأندلس باهتمامهم بمختلف فنون الأدب خاصة الشعر، الذي كان على كافة الألسن من جميع الطبقات الاجتماعية سواء كانوا من التجار أو الصناع أو الفلاحين أو النساء أو الجواري (الكحلوت، 2010، صفحة 75)، ويذكر الحموي في معجمه أن مدينة شلب في الأندلس " قلّ أن ترى من أهلها من لا يقول شعرا ولا يعاني الأدب، ولو مررت بالفلاح خلف فدانه وسألته من الشعر قرض من ساعته ما اقترحت عليه وأي معنى طلبت منه" (الحموي، بلا تاريخ، الصفحات 357-358)، ولقد عرف أهل الأندلس أنهم " أحرص الناس على التميز، فالجاهل الذي لم يوفقه الله للعلم يجهد أن يتميز بصنعته، ويربأ

بنفسه أن يُرى فارغًا عالة على الناس، لأن هذا عندهم في نهاية القبح، والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة، يشار إليه ويحال عليه، وينبه قدره وذكره عند الناس، ويكْرَم في جوار أو ابتياع الحاجة(...) والشعر عندهم له حظ عظيم وللشعراء من ملوكهم وجاهة ولهم عليهم وظائف، والمجيدون منهم ينشدون في مجالس عظماء ملوكهم المختلفة، ويوقع لهم بالصلات على أقدارهم، إلاّ أن يختل الوقت، ويغلب الجهل في حين ما، ولكن هذا الغالب، وإذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعرا فإنه يعظم في نفسه لا محالة ويسخف ويظهر العجب، عادة قد جبلوا عليها" (المقري، 1997، الصفحات 220-222)، وحديث كل من الحموي والمقري يبرز مدى تعظيم الأندلسيين للعلماء والأدباء خاصة الشعراء منهم.

هكذا ساعد هذا الجو الثقافي والأدبي المزدهر في بلاد الأندلس خلال هذه الفترة -وتحديدا في عصر ملوك الطوائف- على خلق بيئة خصبة لنمو الأخلاق الاسلامية وانتشارها بين الرعية، بالرغم من انتشار الفتن والصراعات والنزعات التي كان لها دور سلبي في تفكك المجتمع الأندلسي، إلا أن الاندلسيين بقوا متمسكين بأخلاق هذا الدين وعاملين بنواهيه.

**خاتمة**

من خلال ما سبق يتضح لنا جليا تلك الخطوات الأولى المتعثرة التي صاحبت الأدب الأندلسي في بداياته التأسيسية مع فترة الولاة نتيجة اهتمام المسلمين الفاتحين بإرساء دعائم الدولة الإسلامية الجديدة في بلاد الأندلس، أما في عهد الإمارة فقد بدأت تظهر ملامح هذا الأدب نتيجة الحضور الأموي البارز ودعوة بعض العلماء المشارقة وأدبائهم من الوافدين ومساهمتهم في إرساء أسس الأدب العربي في الأندلس، الذي اكتمل نضجه مع عصر الطوئف الذي عد بحق عهد ازدهار وتطور بحيث تجاوز الأدب في هذه المرحلة مرحلة التقليد والمحاكاة للأدب المشرقي إلى منافسته بأبداع أدب أندلسي يعبر عن الذات الأندلسية المختلفة خصوصياتها المعرفية والفكرية عن الذات المشرقية.



جامعة قسنطينة 2-عبد الحميد مهري ردمد: 2392-5140

**قائمة المراجع**

إبراهيم خليل، السامرائي، وآخرون. (2000). تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ط1. بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

ابن الأبار. (1985). الحلة السيراء. (تحقيق، حسين مؤنس)، ط2. القاهرة: دار المعارف.

ابن الصاعد، الأندلسي .(1913) .طبقات الأمم .بيروت، لبنان: المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين.

ابن سعيد، المغربي. (1955). المغرب في حلى المغرب. (تحقيق، شوقي ضيف)، ط3. القاهرة: دار المعارف.

ابن عذارى، المراكشي. (2013). البيان المغرب في اختصار اخبار ملوك الأندلس. (تحقيق، محمود بشار عواد، بشار عواد معروف)، ط1. تونس: دار الغرب الاسلامي.

أحمد، هيكل. (2013). الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة، ط18. مصر: دار المعارف.

التلمساني، المقري. (1997). نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب. (تحقيق، إحسان عباس)، ط1. بيروت، لبنان: دار صادر.

أنخل جنثالث، بالنثيا. (بلا تاريخ). تاريخ الفكر الأندلسي. (ترجمة، حسن مونس) بور سعيد، مصر: مكتبة الثقافة الدينية.

حسن يوسف، دويدار. (1994). المجتمع الأندلسي في العصر الأموي. القاهرة: مطبعة الحسين الإسلامية.

راغب، السرجاني. (2011). قصة الأندلس من الفتح إلى السقوط، ط1. القاهرة: مؤسسة إقرأ.

شوقي، ضيف. (1989). عصر الدول والامارات في الأندلس. مصر: دار المعارف.

عبد العزيز، عتيق. (بلا تاريخ). الأدب العربي في الأندلس. بيروت، لبنان: دار النهضة العربية.

عبد المجيد، نعنعي. (1983). تاريخ الدولة الأموية في الأندلس. بيروت، لبنان: دار النهضة.

عمر، الدقاق. (1975). ملامح الشعر الأندلسي. بيروت: منشورات دار الشروق.

محمد عبد الله، عنان. (1997). دولة الإسلام في الأندلس دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي، ط4. القاهرة: مكتبة الخانجي.

مصطفى منجد، بهجت. (1986). الاتجاه الإسلامي في الشعر الأندلسي في عهدي ملوك الطوائف والمرابطين، ط1. بيروت: مؤسسة الرسالة.

ياقوت، الحموي. (بلا تاريخ). معجم البلدان. بيروت: دار صادر.

يوسف شحدة، الكحلوت. (2010). الأخلاق الاسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف. غزة: الجامعة الاسلامية.